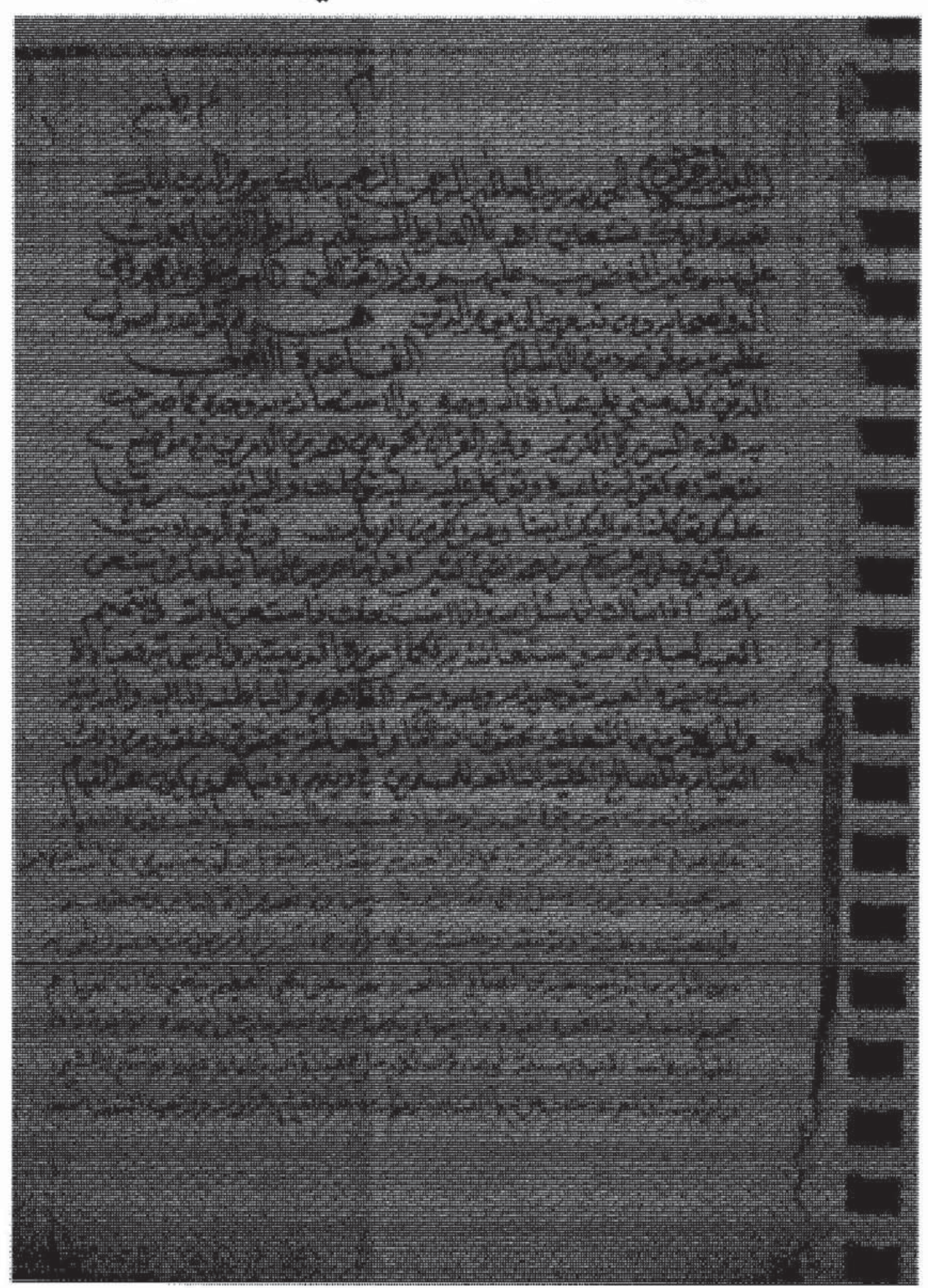
مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٣)

أصول عظيمة
من قواعد الإسلام

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

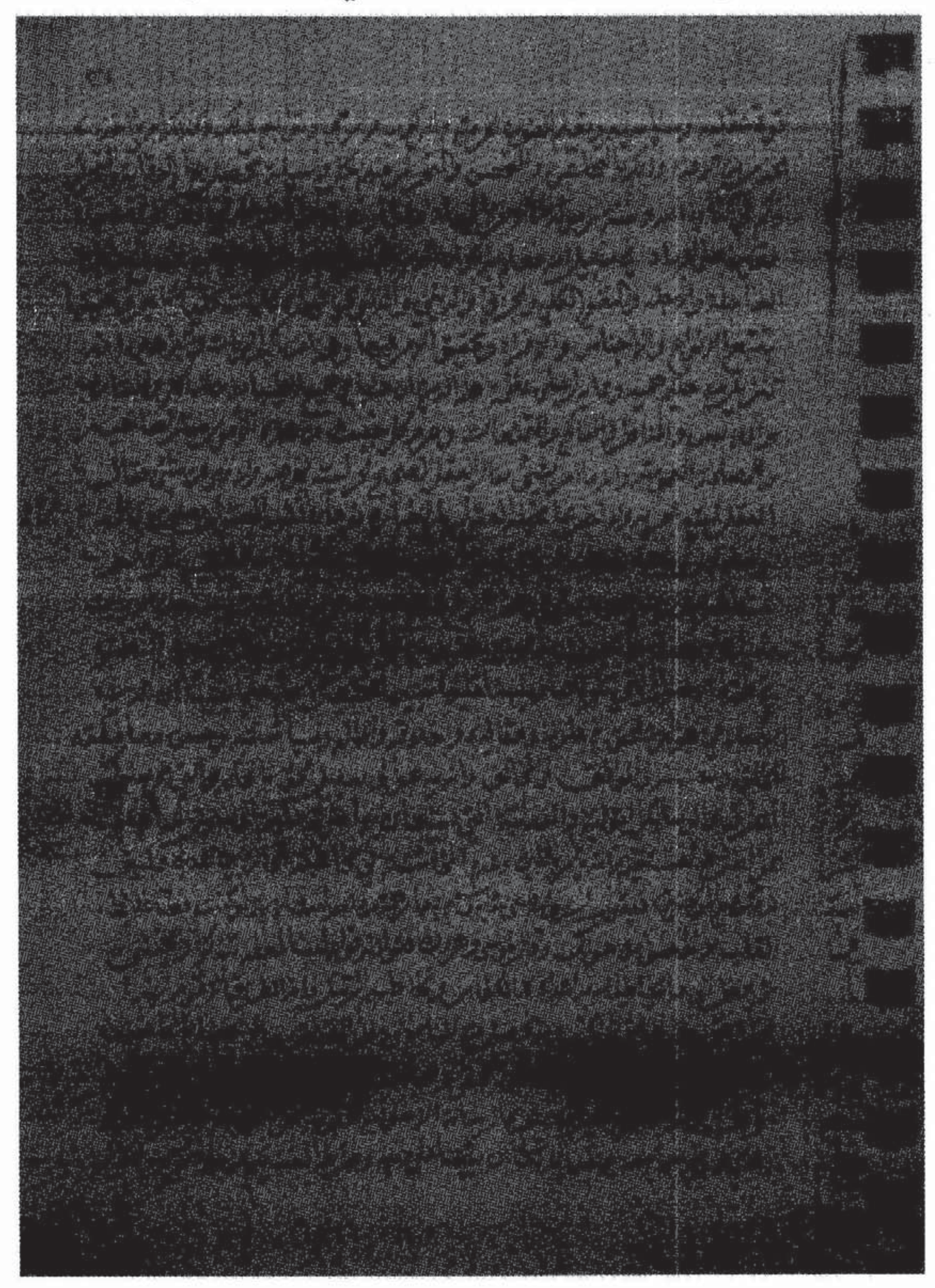
تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على
نشرة الشيخ
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق

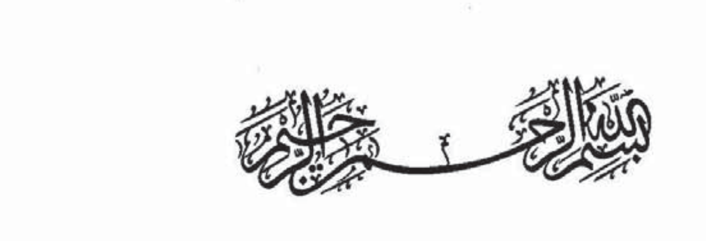


صورة اللوحة الأولى من المخطوط

نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق



صورة اللوحة الأولى من المخطوط



﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٧].

اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

هذه قواعد وأصول عظيمة من قواعد دين الإسلام:

القاعدة الأولى: الدين كله مبني على عبادة الله وحده والاستعانة به وحده.

كما صرحت به هذه السورة الكريمة، وفي القرآن الجمع بين هذين الأمرين في مواضع متعددة؛ كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤]. وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ من هذا شيء كثير؛ كقوله: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[١]. «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٢].

وبتتميم العبد لعبادة الله واستعانته به تكمل أموره الدينية والدنيوية، فعبادة الله أن يقوم العبد بتوحيد الله، وعبوديته الظاهرة والباطنة؛ المالية والبدنية والمركبة منهما المتعلقة بحقوق الله تعالى، والمتعلقة بحقوق خلقه، ومن ذلك: القيام بالمصالح الكلية النافعة للمسلمين

---

(١) مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦).

في دينهم ودنياهم، ويكون هذا القيام مصحوبًا بثلاثة أمور: قوة الجد، والاجتهاد بحسب ما يستطيعه العبد، وقوة الاعتماد على الله في تيسير ذلك، الأمر الذي يحاوله العبد مع الثقة التامة بالله في تيسيره وكمال الإخلاص لله؛ بحيث لا يكون الحامل له على ذلك غرض خسيس، ولا قصد مراءاة الناس وسمعتهم، ولا عصبية وطنية أو قومية أو جنسية، بل الحامل له على ذلك إرادة رضا الله، وحصول ثوابه، ومن ثوابه ما يترتب عليه من المصالح النافعة.

وبهذا المعنى الكلي العظيم يتضح لنا أن القيام بجميع الأسباب النافعة، والقيام بما يتممها ويكملها هي من أعظم ما يدخل في هذه القاعدة، فإن القيام بها عبادة لله ووسيلة إلى عبادة الله، فكما يدخل في عبادة الله ما أعان عليها من السعي والمشي والركوب إلى العبادات، فيدخل فيها اكتساب الأموال من حلها للقيام بالزكوات وواجب النفقات، ولقيام الأعمال النافعة التي لا تقوم إلا بالأموال، ويدخل فيها أيضًا تعلم الفنون والصناعات العصرية والاختراعات التي فيها استعداد المسلمين لمقاومة أعدائهم وللسلامة من شرورهم، وذلك بحسب المستطاع؛ قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فكل ما يستطيعه المسلمون من إعداد القوة العقلية والصناعية والسياسية والفنون العسكرية، وما أشبه ذلك فإنه يدخل في عبادة الله وفيما يعين عليها؛ فإن الجهاد الذي هو بذل الجهد في مقاومة الأعداء من أجل العبادات، فما يعين عليه فإنه منه.

فبهذا يعلم أن المسلمين بالمعنى الحقيقي أكمل الخلق في فعل الأسباب النافعة؛ لأنهم يبدون فيها مقدورهم، مستعينين بالله في حصولها وفي تكميلها وفيما لا يقدرون عليه منها، وفي إنجاح أعمالهم وحصول مقاصدهم، فليس بعد هذا الكمال الذي حث عليه الدين الإسلامي كمال ولا فوقه مرتقى، حيث يموّه الدعاة إلى الإلحاد أن الدين الإسلامي يثبط العاملين ويضعف نفوسهم، وهذا من المكابرة والتجري والكذب الصراح بمكان لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل، فإذا تبين أن الدين الإسلامي الصحيح يحث على القيام بالأسباب النافعة، ويبعث الهمم والعزائم بالاستعانة بالله عليها والثقة به في تكميلها

ونجاحها، فكم في الكتاب والسنة من الأمر بفعل الخيرات وترك المنكرات والأخذ بجميع الأسباب النافعات، فاعلم أن ههنا طريقين ذميمين منحرفين في الأسباب يبرأ الدين منهما كل البراءة:

أحدهما: مذهب الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله، وأن حركاته الاختيارية حركات اضطرارية بمنزلة حركات الأشجار، وأن الأسباب لا تأثير لها في مسبباتها، وأن الله يخلق عندها لا بها، ويوجد الأشياء باقترانها عادة لا أنها طريق ووسيلة إلى مقاصدها، وهذا المذهب باطل شرعًا وعقلًا:

أما شرعًا فإن الكتاب والسنة مملوءان من ذكر إضافة الأعمال للعاملين خيرها وشرها، وأنهم هم الذين يفعلونها طوعًا واختيارًا لا قسرًا واضطرارًا، ومملوءان من ذكر أن الأسباب بها حصول مقاصدها، وهي الطريق الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة، وأن الكسل عنها موجب للحرمان، والضعف فيها داع إلى الخسران، كما تقدم أن الشرع يحث عليها غاية الحث مع الاستعانة بالله عليها.

وأما بطلان هذا القول عقلًا فلأنه من المعلوم بالضرورة أن أفعال العباد، بل والحيوانات تقع باختيارهم وإرادتهم؛ إن شاءوا أرادوا وفعلوا، وإن أرادوا تركوا، وأنه لولا أن العباد تقع أفعالهم طوع اختيارهم لما كان للأوامر الشرعية والعرفية فائدة، فكيف يؤمر ويوجه الخطاب إلى من لا قدرة له على أفعاله، وكيف يوجد النهي واللوم على من لا يقدر على ترك النواهي، فهذا معلوم فساده بالضرورة من الشرع وببداهة العقل.

وأعظم منه بطلانًا وأشد فسادًا مذهب الطبائعيين في الأسباب [الذين][1] يرون الأسباب جارية على مقتضى الطبيعة ونظام الكون، وأنها لا تعلق لها بقضاء الله وقدره، وأن الله لا يقدر على تغييرها ولا منعها ولا إعانتها، وأهل هذا المذهب معروفون بالخروج عن ديانات

(١) في المخطوط: «الذي»، ولعل المثبت أنسب للسياق.

الرسل كلهم؛ لأن هذا القول الخبيث مبني [على][1] نفي الإيمان بالله ونفي ربوبيته، والرب في الحقيقة عند هؤلاء هي الطبيعة، فهي التي تتفاعل وتتطور وتحدث الأشياء كلها، فهؤلاء الملحدون لا يثبتون لله أفعالًا ولا يثبتون أنه يثيب الطائعين بالنعم والكرامات في الدنيا والآخرة، ولا يعاقب العاصين بالنقم في الدنيا والآخرة، وينفون معجزات الأنبياء الخارقة للعادة كلها وكرامات الأولياء، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا المذهب الذي هو أبطل المذاهب، الذي تنزه عنه اليهود والنصارى وكثير من المشركين، فضلًا عن الدين الإسلامي- قد اغتر به بعض الكتاب العصريين وأرادوا من سفاهتهم وجراءتهم العظيمة أن ينسبوه إلى دين الإسلام، ودين الإسلام وسائر الأديان بريئة من هذا القول الخبيث، فهو في شق وأديان الرسل في شق آخر؛ الرسل والشرائع تثبت ربوبية الله وأفعاله وقضاءه وقدره، وانقياد العالم العلوي والسفلي لإرادة الله وقدرته، وهؤلاء ينكرون ذلك، والرسل والشرائع تثبت أن الأسباب والمسببات محل حكمة الله، وأن الله قد جعلها على نظام حكيم دال على كمال حكمة الله وانتظام أمر الدنيا والآخرة، وأنه لا يمكن أحد أن يغير سنن الله ولا يحولها، ومع هذا فإنها تابعة لمشيئة الله وإرادته لا يستقل سبب منها إلا بإعانته، وقد يمنع بعض الأسباب ويغير بعض الأسباب ليري عباده أنه هو المتصرف المطلق، فقد أوقع الله الأخذات الخارقة بالمكذبين بالرسل، وأكرم أنبياءه وأولياءه بالنجاة في الدنيا والآخرة؛ فأهلك قوم نوح بالطوفان ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين، وجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وأعطى موسى من الآيات؛ كالحية والعصا وفلق البحر ما فيه أكبر عبرة بأنه المتصرف المطلق، وجعل عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنه.

وأعطى محمدًا ﷺ من الكرامات والخوارق الكونية ما لم يعط أحدًا من الرسل؛ فانشق له القمر وسلم عليه الشجر والحجر، ونبع الماء من بين أصابعه، واستقى الخلق الكثير من الماء القليل وأشبع الخلق العظيم من الطعام اليسير، وأبرأ الله بدعواته أمراضًا كثيرة، وأنزل الله

(١) ليس في المخطوط وأثبتناها لاستقامة السياق.

الغيث بدعوته في قضايا كثيرة، وعصمه الله من الناس ونصره في مواطن كثيرة نصرًا خارقًا للعادة ونصر الله أمته في مواطن كثيرة، وأكرم الله الرسل والأولياء في أمور خارقة للعادة. وهذه الأمور كلها مما ينكرها أهل هذا المذهب الخبيث؛ فعلم أنه منافٍ للإيمان بالرسل من كل وجه، وأن من زعم أنه يبقى مع صاحبه من الإيمان شيء فهو مغرور مكابر.

وأما بطلانه عقلًا وفطرة فإن العقلاء كلهم مطبقون على انقياد العالم العلوي والسفلي إلى إرادة الله وقدرته، ولم ينكر ذلك أحد إلا من جحد الله ولم يثبت وجوده، وهؤلاء قد علم أن عقولهم قد مرجت وأنكروا الأمور المحسوسة التي لا يزال الله يريها عباده في جميع الأوقات.

ومن فروع هذا المذهب الإنكار بأن الله ينقذ المضطرين ويجيب دعوات الداعين ويغيث اللهفات ويكشف الكربات، وإنما هي عندهم الأسباب تتفاعل وتتغالب؛ فجحدوا ما علم بالضرورة من شرائع الأنبياء وما أقرت به الخليقة واعترفوا به وفطروا عليه؛ وبذلك حكموا لأنفسهم بمفارقة العقل والدين.

ومن فروع ذلك: إنكار قصة آدم وإهباطه إلى الأرض، وخلق الله إياه وإيحائه إليه، وجميع ما تحتوي قصته مع زوجه، ومع إبليس، وإنكار أنه أول الإنسان، وزعموا أن الإنسان في أول أمره مكث مدة طويلة لا يتكلم ولا يعبر عما في ضميره، ثم انتقل من ذلك الطور البهيمي إلى طور الإشارات دون التكلم باللغات، ثم مكث ما شاءت الطبيعة - لا ما شاء الله - فتطور وصار يتكلم؛ فجحدوا ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب واتبعوا ما تخرصه المعطلون الملحدون الذين بنوا نظرياتهم على تخرصات لا تنبني على العلوم المعقولة ولا العلوم المحسوسة.

ومن فروع هذا المذهب الخبيث أن هذا العالم لم يزل ولا يزال، وأن الله لا يغيره ولا ينقل العباد من هذه الدار إلى دار الجزاء فأنكروا مقصود ما جاءت به الكتب السماوية والرسل الكرام، وما دلت عليه الأدلة العقلية الصريحة التي لا تقبل ريبًا ولا إشكالًا، فإن الطبيعة خلق

من خلق الله، فهو الذي خلقها وطبعها ودبرها وسخرها، فتبًّا لمن جعلها ربه وإلهه وهو يشاهد من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس أكبر الأدلة والبراهين على ربوبيته رب العالمين، وأن جميع الموجودات منقادة لإرادته مصرفة بقدرته.

فبهذا التفصيل يتضح أن هذا القول الأخير ليس مذهبًا لأحد من المعترفين بالأديان، وإنما هو مأخوذ عن زنادقة الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وأن الله لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئًا من الجزئيات، ومذهب هؤلاء معروف أنهم لا يصدقون برسالة أحد من الرسل ولا يقرون بشيء من الكتب.

وأما المذهب الذي حكيناه عن الجبرية فمع بطلانه فأهله أحسن بكثير كثير من أولئك؛ فإنهم ينتسبون إلى الدين ويعظمون الرسول ولكن غلوا في القضاء والقدر فسلبوا العبد قدرته؛ ضلالًا منهم وجهلًا مع إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، لكنهم سلطوا أعداء الرسل على المسلمين؛ حيث نسبوا مذهبهم للدين، والدين بريء منه، فحمل عليهم الفلاسفة وسفهوا رأيهم في هذا، وظنوا أنهم بذلك انتصروا على الدين، ولكن الدين الحقيقي يخطئ هؤلاء ويضللهم، ويحث العباد على القيام بالأسباب النافعة في الدين والدنيا، ويحضهم على الاجتهاد فيها وعلى الاستعانة بالله وبحوله وقوته، وكذلك الدين الحقيقي والعقل الصحيح يخبر أن ضلال هؤلاء الفلاسفة المعطلين في الأسباب أفظع من ضلال الجبرية؛ حيث جعلوا الأسباب مستقلة منقطعة عن قضاء الله وقدره وأنكروا الأصول السابقة العظيمة لهذا الأصل القبيح.

القاعدة الثانية: الدين الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا الأصل الكبير الذي صرح به الكتاب والسنة في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣]. ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف: ٣]. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿ٱتَّبِعْ

مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]. ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران: ١٦٤]. ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٩٥]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[النساء: ٨٧]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[النساء: ١٢٢]. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[آل عمران: ١٣٢].

والرسول في مواضع كثيرة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] الآية. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨]. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[الليل: ١٥، ١٦]. ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥]. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٣٦، ٣٧]. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ٢٤]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾[الشورى: ٥٢، ٥٣] الآية.

فهذه الآيات الكريمات وأضعافها وأضعاف أضعافها دلت دلالات صريحة أنه يتعين على الخلق اتباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، وأن الهدى والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة في اتباع ذلك، وأن في ضد ذلك الضلال والهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة، وأن الصراط المستقيم الذي من سلكه في عقائده وأقواله

وأفعاله وشئونه الدينية والدنيوية هو سبيل الله الذي شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ من الإخبارات والأوامر والنواهي، وأن وظيفة المكلفين أن يصدقوا كل ما أخبر الله به ورسوله ويطيعوا الله ورسوله في امتثال الأمر واجتناب النهي، وأن السعادة والنجاة في هذا التصديق وهذه الطاعة، والشقاء والعذاب في تكذيب الأخبار والتولي عن الأمر والنهي، وأن من آمن وعمل صالحًا وسلك طريق الرسول فهو من أولياء الله وحزبه، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحًا فهو من أعدائه وحربه، وأنه يتعين سلوك طريق المنيبين إلى الله في ظاهرهم وباطنهم، لا طريق الغافلين ولا المعرضين والمعارضين الصادين عن سبيل الله.

فهذه النصوص ونحوها صريحة أنه يجب أن يكون الأصل الذي إليه مرجع المكلفين كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأن جميع المقالات والأحوال والأعمال والعلوم توزن بهذا الأصل، فما وافقه فهو الحق والصدق والصواب، وما خالفه وناقضه فهو الضلال والشقاء، وأن من جعل كلام أعداء الرسل هو الأصل، وغيره ما وافقه قبله وما خالفه رفضه فهو محاد لرسل الله منابذ لدين الله، وأن في مقدمة هؤلاء الملحدين من دعوا إلى رفض كل قديم وجعلوه سلّمًا لهم وطريقًا لرفض الدين وعلومه وأعماله، وأن هذه دعاية إلحادية، القصد منها الدعاية إلى نبذ الدين واعتناق طريق الملحدين، وأن أهل العقول الصحيحة والألباب السليمة هم الذين يدعون إلى رفض الشرور والفساد وأنواع الظلم وإلى الحث على الخير والصلاح والإصلاح.

فهذا هو الأصل الذي يوافق عليه جميع العقلاء أهل الأديان وغيرهم، وحيث كان هذا هو الميزان الذي لا يمكن كل أحد إلا الاعتراف به حتى المنصفين من الأجانب، فعلينا وعلى الخلق كلهم أن يعرضوا القديم والحديث على هذا الأصل الجليل، وحيث عرض على هذا الأصل القديم والحديث وجد ما دل عليه الكتاب والسنة هو الخير وهو

الهدى والسعادة؛ لأنه يدعو إلى الخير قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[1] [آل عمران: ١٠٤]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. فما ثم صلاح وخير ونفع ديني ودنيوي إلا والكتاب والسنة قد حث عليه ورغب فيه، وبين الطريق الموصلة إليه حتى الفنون والاختراعات والصناعات الحادثة التي فيها نفع للعباد، وتقيهم من الشرور والفساد، وما من شر وضرر وفساد إلا وقد نهى الدين الإسلامي عنه سواء كان ذلك متقدمًا أو متأخرًا.

وأما تعنت الملحدين الماديين بوجوب رفض القديم مطلقًا واعتناق الجديد مطلقًا، فهذا أصل لا يمكن أن يوافق عليه أحد من العقلاء؛ لأن القديم منه طيب وخبيث، والجديد منه طيب وخبيث، فالطيب يجب قبوله مطلقًا والخبيث يجب رفضه مطلقًا، والطيب الذي في الحديث إنما استفيد مما دل عليه القديم من علوم وأخلاق وأعمال. فأصل الخير ومنبعه ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ويقال لأهل هذه الدعاية الخبيثة: هذه دعاية لا يمكن أن يوافق عليها أحد حتى أنتم لا توافقون عليها، فإنكم تقبلون ما نقلتم عن أئمتكم وتحثون على ذلك سواء كانوا من القدماء أو من الآخرين، فأصل لا يوافق عليه أحد من الخلق يجب أن نرفضه وأن نرجع إلى الأصول الدينية والأصول العقلية:

أما الأصول الدينية فقد أريناكم بعض ما دل عليه أشرف الكتب، وهو القرآن بوجوب اتباع كتاب الله وما دل عليه ما جاء عن رسول الله وأنه الخير والحق والهدى، وما سواه شر وضلال وشقا.

وأما الأصول العقلية فهلم فلنتحاكم إلى هذه الأصول التي لا يمكن عاقلًا أن يقدح

(١) بعده في المخطوط: «وأن الله يحب المصلحين».

بها، ومن قدح فيها فهو مكابر [نتحاكم إلى][1] الطيب والخبيث فكل طيب من العقائد والأخلاق والأعمال [والمقاصد والوسائل] فعلينا أن نقبله، وكل خبيث من ذلك فعلينا أن نرفضه و[هلم فلنتحاكم] إلى الخير والصلاح والإصلاح، لا إلى الشر والفساد، فكل خير وصلاح وإصلاح فعلينا أن نقبله، وكل شر وفساد فعلينا أن نتركه، هلم فلنتحاكم إلى ما [يرقي الخَلْق] ويعليهم في دينهم ودنياهم، وإلى ما ينزلهم ويحلل أخلاقهم وآدابهم في [دينهم] ودنياهم فنقبل الأول ونرفض الثاني، هلم فلنتحاكم إلى ما فيه [نفع ديني] ودنيوي، نفع حقيقي فنقبله، وما فيه ضرر ديني ودنيوي [فنرفضه]، هلم فلنتحاكم إلى ما آثاره جليلة وعواقبه حميدة في الدنيا والآخرة فنقبله [ونقبل عليه]، وإلى ما آثاره ذميمة وعواقبه وخيمة فندعه ونرفضه، هلم فلنتحاكم إلى العدل وأداء الحقوق في حقوق الله وحقوق عباده فنقبله وندعو إليه، وأما الظلم وعدم أداء الحقوق الواجبة فلندعه ونتركه، فهذه الأصول العقلية والشرعية وما أشبهها لا يدعى أحد للتحاكم إليها [فيأبى إلا دلنا] على سفاهته وحمقه ومكابرته، فالدين الإسلامي لا [يأبى التحاكم] في [علومه] وأخلاقه وأعماله وآدابه كلها إلى قضايا العقول التي يتفق [العقلاء على صحتها وسلامتها، بل] هو الذي دعا الخلق إليها وحثهم عليها، فكيف يأبى أن يحتكم [إلي ما تقتضيه أصوله وأسسه] وأما إطلاق المحاكمة إلى القديم والحديث فهذا كما تقدم لا يوافق [عليه هؤلاء؛ لأنها] قضية مختلة متزعزعة عند الناصرين لها؛ لأنهم يتناقضون [في رفض] وفي قبول كل حديث، فمنه أشياء يقبلونها، ومنه [أشياء يرفضونها من وجه] دال على فسادها من أنفسهم وحججهم.

ووجه آخر وهو أنهم إذا كانوا يرفضون القديم ويرحبون بالجديد فهذه قضية أول من يحظى بإبطالها واصفوها، وذلك أنهم إذا أسسوا لهم أمورًا يجرونها ويرونها هي الحق الذي يجب تقديمه ونصره كانوا إذا جاء من بعدهم فإما أن يتبعوا ما أسسه الأولون فينتقض أصلهم

(١) ما بين المعكوفين غير مقروء في المخطوط، واستفدناه من نسخة عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، وكذلك ما يأتي مما بين معكوفين.

وتصير الأمور الحادثة عند النشء الحديث لا يعبأ بها وإنما يحافظ على ما قاله الأولون، وهذا بعينه أكبر برهان على نفيها، وأن تسلسل هذه القاعدة عند النشء الذي بعدهم فيوجبون رفض ما قاله هؤلاء واعتناق الأمور المتجددة لم يَثْبُتْ بأيدي الناس حق يكون له الإثبات، بل ما أثبته هؤلاء نفاه الآخرون، وما نفاه هؤلاء أثبته آخرون؛ فصاروا في أمر مريج متهافت مختل الأصول والفروع، هذا من جهة ميزان هذه القضية الجائرة في عقول قائليها، وأما وزنها في الشرائع الدينية وفي العقول الصحيحة فهي أرذل وأخس من أن يقام لها وزن، وإنما هي أقوال صدرت من سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول أرادوا بها التمويه على الأغرار [الذين لا قلب لهم يستفتونه]، ولا ألباب صحيحة يزنون بها الأمور والقضايا، وإنما الموازين التي لا يقدح فيها أحد من العقلاء فتلك الأصول التي أشرنا لها وما أشبهها فهي التي من قالها صدق قوله، ومن حكم بها عدل حكمه، ومن استقام عليها هدي إلى صراط مستقيم، وهي الأصول التي لا يمكن نقضها وتجري مع الزمان والأحوال لا تتغير؛ لأنها حقائق ثابتة صالحة للخليقة موضوعة لنفعهم.

أما المسلمون فليس عندهم أدنى ريب بأن دينهم هو الحق الذي لا تعرف الحقائق إلا به، وهو الدين الذي رسم للخلق حقائق الأشياء ودلهم عليها وأرشدهم إلى منافعها، ولا يستريبون أن جميع أصول دينهم وفروعه وظاهره وباطنه إذا وزنت بتلك الموازين الصحيحة ظهر نورها وجلالها وكمالها، ووجوب تقديمها على كل شيء، وأما المنحرفون عن الدين فربما يصير عندهم في هذا المقام مغالطات، ويدعون دعوتهم [مجردة] عن البرهان أن مذاهبهم هي الموافقة لتلك الأصول، فعند ذلك يقال: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. وبينوا الطريق التي يعرف بها ما ادعيتم، ونحن نعلم علمًا مبنيًّا على البراهين والحقائق أنه ليس لهم طريق صحيح إلى تحقيق كل قول نابذوا به الدين، ثم نقول على طريق التقول في مقام المناظرة: إن الدعاوي إذا تعارضت، والأقوال إذا تناقضت فعندنا حكمان عدلان: الدين الإسلامي والعقل الصحيح.

أما الأول فإن كان المجادل بالباطل يدعي أنه مسلم فإنه يقال له: المسلم بإجماع المسلمين لا يصير مسلمًا حتى يقدم ما جاء به الرسول من كتاب الله وسنة رسوله على ما قاله الناس، فعلينا أن نتبع ما جاء في الكتاب والسنة وما أشكل عليك هل هو موافق أو معارض، وضحنا لك من أدلة الشريعة ما يوجب لك الرضوخ والانقياد التام، وربما كان فهمك قاصرًا عن دلالات النصوص؛ فيبين له دخول جميع المنافع والمصالح في نصوص الشرع، فإن انقاد لذلك فهو مسلم ويصير طريق العقل مؤيدًا لطريق الدين والعقل.

أما الدين فإنه يبين له الأدلة والبراهين العظيمة التي لا تقاوم ولا تصادم على نبوة محمد ﷺ، وعلى الوحي الذي جاء به من عند الله وهي أدلة في أعلى ما يكون من القوة والوضوح والكثرة، وآيات نبوته ﷺ وبراهينها متنوعة؛ أخلاقه العظيمة التي أقسم الله بها بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. بحيث إذا وضح بعضها عرف أنه لا كان ولا يكون أحد من عظماء الرجال يدانيه في الكمال والفضل والخصال الحميدة التي يستحيل معها أن يكون متقولًا، بل تدل على أنه أصدق الخلق وأبرهم وأتمهم في كل فضل وكمال، وما أمر به ونهى عنه وشرعه فإنه محكم منتظم لا يأمر إلا بكل معروف شرعًا وعقلًا، ولا ينهى إلا عن كل منكر شرعًا وعقلًا، لا تجد في أحكامه اختلالًا ولا سفهًا وعبثًا ومنافاة للحكمة.

والقرآن العظيم الذي جاء به من عند الله فيه تبيان كل شيء وهدى ورحمة، وفيه من العلوم والحقائق العظيمة ما لا يمكن أن يأتي عليه الوصف، لا يمكن أن يأتي علم صحيح ينقض ما جاء به بوجه من الوجوه ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. فيه علوم الأولين والآخرين فمجرد نظر المنصف إلى ما جبل الله رسوله ﷺ عليه من الأخلاق وإلى أحكام دينه وكماله وإلى عظمة القرآن وما احتوى عليه من المعجزات، يضطره إلى تصديقه وإلى الخضوع لدينه وشرعه، وإذا علم أنه رسول الله وأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى؛ تعين قبول ما جاء به وأن يكون هو الأصل الذي تعرض عليه الأقوال والمذاهب؛ فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو الباطل، لأنه إذا

علم أنه رسول الله حقًّا كان ما جاء به حقًّا لا يمكن أن يعارض الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فإن أبى المناظر الانقياد إلى شيء مما تقدم فعلى وجه التنزل في المناظرة الدال على غاية الإنصاف وإقناع الخصم، فهلم إلى التحاكم إلى العقول الحرة المعروفة بالاعتدال التي لم تتلوث بالتعصبات ولا بالقصود الفاسدة والأغراض السيئة التي ليس لها قصد إلا طلب الحقيقة والتسليم للحقائق، ولا يستريب من وقف على أصول الدين وتعاليمه العالية والأخلاق السامية وآدابه الرفيعة أنه هو الذي يكفل سعادة الدنيا الحقيقية التي تعد سعادة كما كان كفيلًا بسعادة الآخرة، ولا يعرف ذلك حق المعرفة إلا من تتبع الحقائق الدينية وما تسمو إليه من رقي القلوب والأرواح والأخلاق، وما يعين على ذلك في المادة المالية والصناعية والسياسية وما يقوي ذلك من الأمور المعنوية؛ وبذلك يعرف معرفة على وجه البصيرة التي لا تردد فيها ولا ريب أنه يتعين على الخلق اتباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة عقلًا، كما تعين ذلك شرعًا وتقدمت الإشارة إلى بعض ما دل على ذلك من النصوص، وإنما قلنا ذلك وتنزلنا هذا التنزل الذي لا يبقي لمبطله شبهة؛ لأنه في هذه الأوقات طمّ الإلحاد وفشت دعايته بين المسلمين وصار يدعو إليه الأجانب ويدعو إليه من تسمّى بالدين؛ إما نفاقًا وخداعًا، وإما أن يكون صنيعة لغيره وأجيرًا، وإما أن يكون ليس له بصيرة؛ سمع الناس يقولون شيئًا فقاله، وهذا كثير في أهل الصحف الذين لا بصيرة لهم في الدين، ولا يبالون بسقوط صحفهم عن الاعتبار الديني، بل والأدبي، ومن دعا بالطريقة التي شرحناها لم يلق لدعوته معارضًا أصلًا، اللهم إلا لمن عرفوا بالمكابرات وجحد الحقائق والمغالطات التي لا تسمن ولا تغني ولا تفيد شيئًا.

ولنذكر صورة مناظرة[١] جرت بين رجلين كانا رفيقين وكانا مسلمين يدينان بالدين الحق

---

(١) علق في الحاشية بقوله: «قف على مناظرة عظيمة» يمكن الرجوع إليها في انتصار الحق من هذا الجزء.

علمًا وعملًا، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة ثم التقيا فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وأخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به سيد المرسلين فحاوله[1] صاحبه وقلبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب، فعرف أن هذه علة ومرض تفتقر إلى استئصال الداء وإنزال الدواء على الداء، وأن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته، وإلى تمحيصها وتخليصها وتوضيح مرتبتها ومقابلتها بما يضادها ويقمعها، فقال له مستكشفًا عن الحامل له على ذلك: ما هي يا أخي الأسباب التي حملتك على ما أرى؟ وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه، فإن كان خيرًا كنت أنا وأنت فيه شريكين وإلا كان غير ذلك، فأعرف من عقلك وأدبك أنك لا ترضى أن تقيم على ما يضرك ويثمر لك الثمرات الرديئة. فقال له: لا أخفيك العلم أني قد رأيت حالة المسلمين حالة لا يرضاها ذوو الهمم العلية؛ رأيتهم في ذل وخمول وأمورهم مدبرة وأحوالهم سيئة، ورأيت في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقوا في هذه الحياة وتفننوا في الفنون والمخترعات العجيبة المدهشة والصناعات المتفوقة، فرأيتهم قد دانت لهم الأمم وخضعت لهم الرقاب وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفة بما شاءوا ويعدونهم كالعبيد والأجراء وأقل من ذلك، فرأيت منهم العز الذي بهرني والتفنن الذي أدهشني فقلت في نفسي: لولا أن هؤلاء هم القوم وأنهم على الحق، والمسلمون على الباطل ما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرت لك، فرأيت أن سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خير لي وأحمد عاقبة، فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت.

فقال له صاحبه حين أبدى له ما كان مستورًا: إذا كان هذا هو السبب الذي حولك إلى ما أرى فهذا يا أخي ليس من الأسباب التي يبني عليها العقلاء وأولو الألباب عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم.

أما تأخر المسلمين فيما ذكرت فليس ذلك من دينهم، وقد علمت وتيقنت أن دين الإسلام

(١) في انتصار الحق: فحايله.

يدعو إلى الصلاح والإصلاح، والاستعداد بالقوة المعنوية والقوة المادية من كل وجه إلى قوة المسلمين ومقاومتهم لأعدائهم، وإلى السلامة من كل أضرارهم وهو لا تزال تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها هلموا إلى جميع الأسباب النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودنياكم، أفبتفريط أهل الدين تحتج على الدين؟! أليس هذا التفريط منهم يوجب على أهل البصائر منهم أن يكون خيرهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا لينالوا المقامات الشامخة، ويبتعدوا من الهوة العميقة؟! أليس القيام التام والجهاد من أفرض الفروض وألزم اللوازم في هذه الحال، فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا في هذه الحال التي وصفت؟! فإن الجهاد لا يمكن تعبير المعبرين عن فضائله ومناقبه؛ فإنه في هذه الحال يكون الجهاد قسمين:

قسم منه فيه تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النافعة وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، ولعل هذا أشق النوعين وأفضلهما. وقسم فيه مقاومة الأعداء وإعداد العدة القولية والفعلية والسياسية والداخلية والخارجية لمقاومتهم ومنازلتهم في ميادين الحياة، أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت وصار الموقف حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخلفين، فكيف مع ذلك تنضم إلى حرب المحاربين؟! لا تكن يا أخي أرذل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. قاتلوا لأجل الدين أو ادفعوا لأجل الرابطة القومية فأعيذك يا أخي من هذه الحالة التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجدات والمروءات، فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعديدهم، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلهم في حالة اشتدت فيها الضرورة إلى نصرة الأولياء وقمع عدوان الأعداء؟! فهل رأيت يا أخي قومًا خيرًا من قومك ودينًا خيرًا من دينك؟! فقال ذلك المنقلب المنصوح: الأمر كما ذكرت لك ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات وألفوا السياسات والحضارات وترقوا في هذه الحياة. فقال له صاحبه وهو يحاوره: أرفضت دينًا قيمًا، كامل القواعد، نير البرهان، يدعو إلى الخيرات، ويحث على طرق السعادة والفلاح، ويقول لأهله:

هلموا إلى الفلاح والنجاح. دين مبني على الحضارات الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والشفقة وأداء الحقوق، وشملت بظلها الظليل وخيرها الطويل وإحسانها الشامل وبهائها الكامل ما بين المشارق والمغارب، وأقر بذلك الموافق والمخالف، أتتركها راغبًا في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسة على الطمع والجشع وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان ورحمته، حضارة ظاهرها مزيف وباطنها خراب، وتخالها تعميرًا للوجود وهي في الحقيقة مآلها الهلاك والتدمير، ألم تر آثارها في هذه الأوقات وما جلبته للخلق من الهلاك والفناء والآفات، فهل سمع الخلق منذ أوجدهم الله لهذه المجازر[1] البشرية نظيرًا ومثيلاً، فهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادتهم غير تتبيب[2]، فلا يخدعنك يا أخي ما ترى من المناظر والزخرفة والأقوال المموهة والدعاوي الطويلة العريضة، فانظر إلى بواطن الأشياء ولا تغرنك الظواهر، وتأمل النتائج الوخيمة فهل أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها، ألم ترهم ينتقلون من شر إلى شرور وأنهم لا يسكنون في وقت إلا وهم إلى شرور فظيعة يتحفزون.

ثم هب أنهم متعوا في حياتهم ومتعوا بالعز والرياسات ومظاهر الحياة، فهل إذا انحزت إليهم وواليتهم يشركونك في حياتهم ويجعلونك كأنفسهم؟! كلا والله إنهم إذا رضوا عنك جعلوك من أخس خدامهم وأقذر أجرائهم، وآية ذلك أنك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم وتتكلم وتجادل وتخاصم على حسابهم ولم نرهم رفعوك حتى ساووا فيك أدنى قومهم وبني جنسهم، فالله الله يا أخي في دينك، والله الله في مروءتك وأخلاقك وأدبك، والله الله في بقية رمقك، فالانضمام إلى هؤلاء والله هو الهلاك.

فلما سمع هذا الكلام وتأمل جميع الطرق والوسائل التي تنال بها الأغراض الصحيحة من

(١) في المخطوط: «المجازت»، والمثبت من انتصار الحق.

(٢) أي: تخسير.

أولئك الأقوام فإذا هي مسدودة؛ عرف أنه في محنته هذه من جملة المغرورين، وأن الواجب عليه متابعة الناصحين، وأن الرجوع إلى الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة خير من التمادي على الباطل الذي يحتوي على الضرر المبين، فقال لصاحبه: كيف لي بالرجوع وأنى لي وقد أظهرت الانحياز إلى أولئك [و] النزوع. فقال له صاحبه: ألم تعلم أن من أكبر فضائل الإنسان أن يتبع الحق الذي تبين له ويدع ما هو فيه من الباطل، وأن الخطأ والزلل قلما يسلم منه بشر، ولكن الموفق [هو] الذي إذا وقع في المهالك طلب الوسيلة والطريق إلى كل سبب يخلصه منها، وأن من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه، ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. واعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين وشاهد ما فيه من الغي والضلال، ثم تراجع إلى الحق الذي هو حبيب القلوب، ربما كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه فارجع إلى الحق ثابتًا وثق بوعد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

فقال: الحمد لله الذي أنقذنا بلطفه وحسن عنايته من الهلاك، ومنَّ علينا بالسعادة والهدى فنسأل الله أن يتم نعمته علينا بالثبات على دينه إنه جواد كريم.

فقال الناصح لأخيه لما رأى ما يسره من رجوعه إلى الحق: وأزيدك يا أخي بيانًا أن هذه المظاهر التي نراها من الكفار قد نبهنا الله في كتابه ألا نغتر بها، فلولا أنه تعالى قد علم أنها من طرق الغرور ووسائل الخداع لما نبهنا عليها وأرشدنا وحذرنا أن نغتر بها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]. والآيات [فبيَّن لنا] أن هذا الاغترار مصيدة للجاهلين، وأن الله أرى عباده من وقائعه وآياته في الأمم الظالمة ما حصلت به العبرة، وأن من بنى أمره ومسالكه على الاغترار بما متعوا به فإنه جاهل أحمق مقلد قاصر ونظره قاصر، وأيضًا فقد أخبر تعالى في آيات كثيرة أنه يستدرجهم فيما أعطاهم

فيغترون ويغتر بهم، وهذا هو الواقع منهم، وممن تعشق أحوالهم، وأنه تعالى يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولسنا ننكر أن الله أعطاهم أسبابًا عظيمة تدرك بها المطالب، لكن هذه الأسباب إن لم تبن على الحق والدين الحق صار ضررها أكثر من نفعها، هذا بالنظر إلى الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم في الآخرة من نصيب ولا خلاق[١].

القاعدة الثالثة: الإيمان بالله هو الأصل الذي دعت إليه جميع الرسل، وبه الرقي الحقيقي في الدنيا والآخرة.

جميع الكتب التي أنزلها الله، وجميع رسول أرسله الله[٢]، الأصل الذي أسدت إليه، والدعوة التي دعت إليها هو الإيمان بالله، والإيمان بوجوده وإيجاده المخلوقات، والإيمان بما له من الأسماء الحسنى وصفات الكمال والإذعان الكامل لعبوديته والافتقار إليه.

القرآن العظيم الذي هو أجل الكتب وأعظمها والمهيمن عليها حث على هذا الأصل بالطرق كلها؛ ففيه من أسماء الله الحسنى أكثر من ثمانين اسمًا معرفتها ومعرفة معانيها تملأ القلوب إيمانًا ونورًا ويقينًا وعلمًا وعرفانًا، هو أفضل ما حصلته القلوب وأرقى الاعتقادات النافعة، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[البقرة: ٢٨٥]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد: ١٩]. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة: ٨٢]. في مواضع كثيرة، يرتب عليها خيرات الدنيا والآخرة، ويرتب على عدم الإيمان جميع الشرور الدنيوية والأخروية، ويخبر أن الأعمال والتعبدات كلها ناشئة عن الإيمان، فمن امتلأ قلبه من الإيمان بالله كانت قوة

---

(١) علق في الحاشية بقوله: انتهت المناظرة.

(٢) كذا وردت هذه العبارة في المخطوط.

عبوديته لله بحسب ذلك الإيمان الذي في قلبه، وكذلك أعمال الأسباب النافعة التي تنفع الأفراد والشعوب، لا يمكن العبد أن يقوم بها على وجه الكمال والصدق والإخلاص والبناء على الأصول النافعة إلا بالإيمان.

فالإيمان أصل الخير الديني والدنيوي وبه توزن الأمور صالحها وطالحها، وإذا أردت تفصيل هذه الجمل العظيمة والتمثيل لها على وجه يعترف به أهل العقول والألباب، فالأمور التي يحصل بها الرقي الحقيقي والسعادة والفلاح الاعتقادات الصحيحة والأخلاق المزكية للقلوب، المطهرة للأرواح، الباعثة للهمم والعزائم إلى كل خير، والأعمال الصالحة النافعة في الدين والدنيا، وهذه الأمور متلازمة لا يتم بعضها إلا ببعض وبتمامها السعادة والفلاح، فإذا اعتقد العبد ما أخبرت به الرسل عن الله تعالى، وأن له الكمال المطلق من جميع الوجوه بكل وجه واعتبار، وأن الأشياء؛ وجودها وبقاءها وكمالها بالله تعالى ومنه تستمد كل شيء، فعلم أن الله هو الخالق وحده وما سواه مخلوق، وهو الرازق المحسن وما سواه مرزوق مضطر إلى إحسان ربه وكرمه من كل وجه، وهو المدبر المصرف للعالم العلوي والسفلي بحكمته وعلمه وعنايته وحسن تدبيره ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء يسمع الأصوات: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠].

ويرى جميع ما حواه العالم العلوي والسفلي لا يخفى على نظره أدق المخلوقات في أخفى الأمكنة، وهو مع ذلك واسع الرحمة والجود والكرم والبر والامتنان يفيض الإحسان على مخلوقاته آناء الليل والنهار، يده بالخير سحّاء الليل والنهار: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]. وموصل إليها من بره وإحسانه جميع ما تحتاجه في وجودها وبقائها وتمام أحوالها.

وهو مع ذلك قد أمر المخلوقات أن تنيب إليه وتسأله حاجتها وتفزع إليه في جميع مهماتها وملماتها فيجيب الداعين ويكشف كربات المكروبين ويزيل الضر عن المضطرين ويسوق

الألطاف وأصناف البر لعباده المنيبين، فمتى اعتقدت القلوب هذه الاعتقادات الصحيحة في ربها وإلهها فلا بد أن تنيب إليه بالخوف والرجاء والمحبة وتمتلئ من تعظيمه والإيمان به وتطلب السعي في كل أمر يرضيه وتتجنب كل أمر يسخطه فيضطرها هذا الأمر إلى الإخلاص الذي هو روح الأعمال، فالمخلص لله تنبني أعماله الظاهرة والباطنة على أن يكون الداعي لها والباعث عليها هو الإيمان بالله، وغايتها الذي[1] تنتهي إليه وتسعى إليه طلب رضاه والتنعم بثوابه وخيراته، وبذلك يزول عن القلوب جميع الأخلاق الرذيلة؛ من الرياء والنفاق والعجب ومساوي الأخلاق، وتتحلى بالأخلاق الجميلة؛ من الحب والإخلاص والطمع في فضل الله والخوف من عقابه والصدق الكامل في طلب مرضاته والإنابة التامة إلى ربها في رغباتها ورهباتها؛ لأنها تعلم أنه لا ملجأ ولا منجى ولا مولى ولا نصير إلا ربها ومليكها.

ويكون محبتها للخير الذي يقربها إلى مولاها مقدمة [على][2] كل محبة، وترى أن قوتها وغذاءها وكمالها بهذه الإنابة وهذا الافتقار، وتعطف بهذا التعبد على عباد الله؛ فتحب للمسلمين ما تحب لنفسها من الخير وتسعى لذلك بحسب مقدورها، ثم إذا أصابتها النكبات وحلت بها المصيبات فزعت إلى ربها ليكشف ضرها ويثيبها على ما قدر عليها، وتطمع غاية الطمع في فضل ربها ورجاء رحمته وطلب ثوابه، وبهذا المعنى الذي تتصف به وهذه العقيدة النافعة تهون عليها المصيبات وتخف عنها المكروهات لما تعلمه من حكمة الله واستناد الأمور إلى تدبيره وقدرته، ولما ترجوه من تفريج كربها؛ لأنها تعلم أنه لا يفرج الكربات ولا يزيل الشدات إلا هو ولما ترجوه من الثواب الذي رتبه على المكاره والصبر عليها.

وأما من لم يحصل له هذا الإيمان فإنه عند المصائب والملمات يجري له من الآلام القلبية، والفظائع الروحية، والزلات العظيمة ما لا يمكن التعبير عنه، وربما أن بعض هؤلاء تصل بهم الحال إلى إتلاف نفسه، أو إلى زوال عقله لعدم ما يستند إليه ويرجوه، وكما أن

(١) كذا في المخطوط.

(٢) في المخطوط: «إلى». ولعل المثبت أنسب للسياق.

المؤمن الحقيقي يتلقى المكاره والمصيبات بالصبر والقوة والطمأنينة؛ للأسباب التي أشرنا إليها، فإنه يتلقى أوامر ربه بالقوة والعزيمة الصادقة، ويؤدي حقوقه وحقوق خلقه بالكمال والتمام بحسب استطاعته، ومع ذلك فإنه يعلم أنه لا يمكنه أن تتم له العبودية وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة والمصالح الكلية والجزئية إلا بالسعي بالأسباب الدنيوية النافعة وبالقيام بالقوة المعنوية والمادية [فانبعث] همته لداعي الإيمان وداعي العقل وداعي الفطرة إلى ذلك وأبدى ما يقدر عليه في تحصيل ذلك، وعلم أن المقاصد لا تتم إلا بالوسائل، وأن الوسائل التي تتعين على المصالح مما أمر الله به ومما رتب عليه الثواب، وعلى الاستهانة به العقاب، فدخل في هذا جميع الأسباب الموجودة والتي ستحدث بعد ذلك؛ فعلم بذلك أن الإيمان المذكور هو الباعث على تحصيل خير الدنيا والآخرة، وأن من لا يرجو ثوابًا من الله ولا يخشى منه عقابًا ولا له إيمان يستند إليه أنه ضعيف الهمة ضعيف العزم النافع، وإنما... عزماته في تحصيل لذاته البهيمية وشهواته السفلية وطمعه الدنيء، فربما كانت قوته في هذه الأمور وأسبابه المادية في تحصيلها فوق ما يتصوره المتصور ويعبر عنه المتكلم، ولكن الإيمان يستند إليه ولا غاية حميدة يرتجيها ولا حياة أبدية يعمل لها، فمن كانت هذه حاله لم ينل في هذه الحياة طيبها ولا نجح في تحصيل سعادتها بقطع النظر عن الحياة الأخرى فإنه ليس له في الآخرة من خلاق ولا نصيب.

وبهذا يتضح لنا ما عليه المعرضون الآن عن الإيمان بالله، وأن هذه المناظر وما متعوا به من الحياة ما هي إلا لذات مؤقتة تحتها ما شئت من الآلام والأكدار [وأنه لا غاية لها] وأن المؤمنين بالله مهما تنقلت بهم الأحوال وتطورت بهم الأمور فإنهم خير من [هؤلاء وأحسن] عاقبة، فلو وفق المؤمنون للقيام الكامل بالإيمان على الوصف الذي ذكرنا لحازوا الحياة الطيبة في هذه الدنيا والحياة التي هي أطيب منها في دار القرار، وأزيدك أيضًا أن [الإيمان] والذي وصفنا هو الذي يحث صاحبه على كل خلق جميل ويزجره عن كل خلق رذيل، فالإيمان يدعو صاحبه إلى الصدق في الأقوال والصدق في معاملته الخلق، فمن لم يكن

مؤمنًا هذا الإيمان لم تكن مطمئنًا من أقواله ولا من معاملاته، وربما راعاك في شيء وكذلك في أشياء، وهو الذي يحث على النصح لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم، فإيمان العبد يوجب أن يبذل في هذه الأمور كل ما يستطيعه من النصح ويقدر عليه، ومن لم يكن كذلك فأنت [غير آمن] من غشه إن نصحك فيما يظهر ويبين فما الذي يمنعه أن يغشك فيما يظن أنه لا يبين، ليس معه من الإيمان ما يعصمه من هذا الخلق الرذيل.

الإيمان المذكور يحمل صاحبه على الصبر والقوة والشجاعة والإقدام في المواضع التي يحجم عنها ضعفاء النفوس الذين لا إيمان معهم؛ فالمؤمن لقوة إيمانه وتوكله على الله ورجائه لثوابه وعلمه أن الثواب الديني والدنيوي والأخروي يكون بحسب ما قام به من واجبات الإيمان ومكملاته، وما قام به من الجهاد ويسهل عليه القيام بالأعمال الشاقة [ويهون] عليه وما يلقى من الأهوال والمعارضات ولا يأخذهم في ذلك لوم اللائمين وقدح القادحين ولا [يصعب عليه ما أصابه من جراء] ذلك من المصائب، وكلما قوي الإيمان كان قيامه بهذه الأمور أعظم وأتم.

أما من لم يكن معه ذلك الإيمان الصحيح فمن أين له الثبات على الصبر وعلى المقاومات الشاقة، نعم قد يكون له صبر [بعض الأوقات في تحصيل] أغراضه السفلية وشهواته النفسية، وقد يكون عنده من الشجاعة والقوة [في تحصيل ذلك] ولكن حالة ما أرذلها وأخطرها وأقلها بقاء، فإن الوسائل تابعة [لمقاصدها، فأين من كانت] مقاصده أجل المقاصد؛ نصر الدين وإعانة المؤمنين وقمع أعداء الدين [ومقاومة] الباطل، وتحصيل الفلاح الأبدي والسعادة السرمدية والقيام بحقوق [الله] كليها وجزئيها، أين هذا ممن نهايته إدراك رئاسة مؤقتة ولذات [فانية مشوبة بـ] الأكدار، وكان عاقبتها الهلاك والبوار فوالله إن بين حاليها لكما بين [المشارق والمغارب. الإيمان] المذكور يحمل صاحبه على العدل وينهاه عن الظلم؛ فإنه يعلم أن إيمانه لا يتحقق [ ] إلا بذلك، وأما من عدم الإيمان، فأين العدل الذي يتأسس عليه، فما تأسس العدل إلا [الإيمان بالله واتباع الرسل و] الكتب السماوية وإلا

فطبيعة الإنسان الظلم والفوضوية لا في جماعاتهم ولا [في أفرادهم، وأما ما لم يتأسس] على العدل، فليس من الدين.

وكيف تأمن من لا إيمان له أن يظلمك في دمك ومالك [فإن] النفوس مجبولة على محبة الأثرة إن لم يكن معها إيمان يردعها [وعلم] صحيح، وعدل يحجرها، الإيمان الموصوف بما ذكرنا كما أنه يدعو أهله [إلى الأخلاق الحميدة وينهاهم عن] الأخلاق الرذيلة ويحثهم على الآداب الحسنة، فكذلك يحثهم [ ] الدينية، والحقيقة الإسلامية عليه من فنون الصناعات وأنواع [المخترعات الحديثة... و] استعداد للأعداء بجميع الوسائل النافعة على حسب الحال المقتضية [ ] وإلى الكسل والضعف وأن يكونوا كلًّا على غيرهم.

كذلك يحثهم [على][1] ما تقتضيه المصلحة وعلى جمع كلمة المسلمين واتفاقهم على [ ]. فالمؤمنون بالمعنى الحقيقي يقومون بهذه الأمور لداعي الدين [ ] إذا قام غيرهم فيها للأمر الثاني فقط، ولكن لمصلحة دنيوية أن يسبقهم هؤلاء القوم في تحصيل الفنون العصرية التي [ ] فيها المقاومة والاقتدار على المهاجمة، وعند المسلمين من الدواعي [ ] وطلب المصلحة ما ليس عند غيرهم، واللوم موجه إلى المؤمنين، فليس لهم عذر عند الله، ولا عند خلقه ولا تعذرهم نفوسهم الأبية ولا أخلاقهم وتعاليمهم الدينية الإيمانية إذا كان الإيمان الحقيقي يدعو إلى هذه الفضائل ويزجر عن جميع الرذائل اتضح أنه الطريق الوحيد والصراط الأقوم للسعادة الحقيقية والرقي الحقيقي، وأن ما نراه في بعض الأمم الفاقدة للإيمان ليس إلا كالسراب حتى إذا جاءه المنصف وحقق أمره لم يجده شيئًا، حتى قال بعض منصفيهم في هذا المقام: إن الناس كانوا ولا يزالون يطلبون الحق ولم يكونوا في زمان أبعد عنه في هذا الزمان، يريد بذلك قومه؛ فما هم عليه من مظاهر السعادة الدنيوية فإن حشوه الآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين ما يرحمهم لأجله المقصرون عنهم ويزهد الراغبين في مثلها لهم ويصدهم عن اتباعهم، والسبب بعدهم عن الإيمان والحق، وتزوغ أنفسهم إلى الباطل وهرولتهم خلف دواعي الشهوة.

(١) غير موجودة في المخطوط.

والسبب الأصلي في ذلك كله خلو نفوسهم من الركون إلى الإله الواحد خالق الجميع ورازق الأحياء ومقدر الأسباب لمكاسبهم، فهذه الأحوال والظواهر التي لم تبن على الإيمان هل يقول صحيح العقل إنها حياة سعيدة، والقلوب قلقة والنفوس محترقة، وإنما الراحة والحياة الطيبة راحة المؤمنين الذين اكتسبوا راحة الضمائر وطمأنينة السرائر والرضا الحقيقي مع السعي الجميل في طلب المنافع والمكاسب، فالمؤمن حيث تجده تجد هذا الوصف منطبقًا عليه؛ فهو سعيد وإن كان بين الأشقياء، حكيم وإن وجد بين السفهاء، وأما من أخذ اسم الإيمان رسمًا ولم يتحقق به عقدًا ولا خلقًا ولا أدبًا فلم تضمن له الحياة الطيبة.

القاعدة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

كم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بهذا الأصل العظيم والقاعدة العامة الجامعة لكل خير، فإن المعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، والمنكر اسم جامع لكل ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا، والحق هو العلوم النافعة والأعمال الصالحة فيدخل في هذا تعلم جميع العلوم النافعة وتعليمها، وكما يدخل في ذلك تعليم المستعدين لطلب العلم، فإنه يدخل فيه تعليم الناس ووعظهم في المساجد والمجامع الصغار والكبار، وفي الحديث مع الأصحاب وغيرهم، وكذلك يتعين أن يكون هيئات وجمعيات من المسلمين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومن أكبر المعروف أن يسعوا في جمع كلمة المسلمين واتفاقهم على مصالحهم الكلية وإزالة ما يقع بين المسلمين من التعادي والتباغض والتنافر التي هي من أكبر الأسباب المُمَكنة للأعداء، وأن يكون من المسلمين طائفة كافية مستعدة للجهاد بالإقبال على تعلم العلوم والفنون العصرية والصناعات والأسلحة التي لا يقوم الجهاد إلا بها، فإن الجهاد في سبيل الله من أكبر ما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد نوعان: جهاد واجتهاد في تقوية المسلمين بالروح الإيمانية والقوة المعنوية والشجاعة الدينية، وجهاد الأعداء في مدافعتهم ومهاجمتهم وأخذ

الاحتياطات الكافية لوقاية شرهم وضررهم، ومعلوم أن هذه الأمور تتوقف على الحذق والمهارة في الفنون العصرية النافعة، فيكون السعي فيها وفي تعلمها داخلًا في الجهاد وطريقًا عظيمًا من طرقه، ومن ذلك أن يكون طائفة من المسلمين تتفقد الناس وتلزمهم القيام بالفرائض الدينية؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع حقوق الله وحقوق خلقه الواجبة، وتردعهم عن المنكرات الظاهرة والباطنة.

ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق أن يكون المسلمون في كل أوقاتهم وأحوالهم متناصحين؛ يحث بعضهم بعضًا على الحق الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والصبر على ذلك، فإن الصبر هو الآلة والأساس الذي لا ثبوت للأمور إلا به.

ومن ذلك السعي في المشاريع الخيرية التي تنفع الأمة وتحصيل الأموال لقيامها وتقويمها؛ كالمدارس العلمية في جميع فنون العلم النافع في الدين والدنيا المعينة على الدين، سواء كان ذلك سعيًا على طريق الإحسان المحض أو على طريق التجارة والكسب، فكثير من الأعمال الكبيرة التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم لا تقوم إلا بالشركات الواسعة، فإذا كان الناس يسعون للمساهمة في الشركات التجارية المحضة فكيف يتأخرون عن الشركات الجامعة للأمرين؛ للمصلحة الدينية والمصلحة الدنيوية، بل نفس السعي فيها والعمل لها من أعظم ما يقرب إلى الله تعالى، وتعيينها يتوقف على المشاورة واتباع المصلحة الراجحة.

ومن أجلِّ وأفضل ما يدخل في ذلك مجادلة المبطلين وإقامة الحجج والبراهين على أعداء الدين من الكفار والملحدين، وقد يكون مقاومة الملحدين الذين يتسمون باسم الإسلام ويدعون إلى نبذ أصوله ودعائمه أفضل من التصدي للمبارزين من الأجانب المعروفين بمبارزة الدين؛ فإن هؤلاء شرهم أعظم وضررهم أكبر لاغترار كثير من الناس بانتسابهم إلى الإسلام، وهم في الحقيقة من أكبر أعدائه، وهؤلاء قد يكونون أجراء للأجانب، وقد يكونون مخدوعين، لكن من أوجب الواجبات تمييز أحوالهم وإنكار ما أدخلوه على الدين من الدعاية الباطلة.

وبما تلوناه عليك من التقريرات اليقينية عن دين الإسلام يتضح عقلًا كما اتضح شرعًا بطلان ما زعمه بعض المتعصبين من دعاة النصارى وأجرائهم أن دين الإسلام مانع من الرقي، وأن هذا الكلام والزعم الخبيث مكابرة بينة، وأن الرقي الحقيقي محال وغير ممكن أن يتأسس على قواعد الدين، فالقواعد والأصول التي نبهنا عليها عن الدين لا يمكن أحدًا أن ينكر أنها السبب الأعظم والطريق الوحيد إلى الارتقاء في مدارج السعادة والفلاح، وأنه يتعذر النجاح بدونها وأن كل رقي بغيرها فإنه مبني على شفا جرف هار، وكيف يحصل الرقي إذا لم ترتق القلوب والأرواح بمحبة الله والإنابة والافتقار إليه وقوة الإيمان والتوكل عليه؟ وكيف يحصل الرقي التام ولم ترتق الأخلاق بالتحلي بالفضائل والتخلي عن جميع الرذائل، وكيف يتم الرقي بغير الجهاد الشرعي؛ الذي هو الجهاد على تبيين الحق والهدى وعلى قبوله وعلى دفع عادية المعتدين.

الجهاد الشرعي هو الذي جمع بين القوة المعنوية بالإيمان الكامل بالله والاعتماد عليه والتوكل والاستعانة به والعمل بجميع الأسباب التي لا يتم الجهاد إلا بها، وجمع القوة المادية؛ حيث حث على الاستعداد بكل ما يستطاع من القوة العقلية والسياسية والرمي والركوب وتعلم الصناعات والفنون التي تعين على الجهاد، وعلى أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة وطريق، فيا ويح من زعم أن هذه التعاليم العظيمة العالية لا يحصل بها الرقي، وإنما يحصل بالقوة المادية التي لا صلة لها بالدين، المبنية على القساوة والهمجية والوحشية والظلم ونبذ الدين، ولكن أكثر الناس تغرهم المظاهر والصور وليس لهم ألباب ينظرون بها إلى حقائق الأشياء وإلى الأمور النافعة التي نتائجها الخيرات والسعادة الأبدية.

القاعدة الخامسة: الدين الإسلامي هو الصلاح المطلق ولا سبيل إلى صلاح البشر الصلاح الحقيقي إلا بالدين الإسلامي.

قال تعالى في عدة آيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة، ٢٢٧، يونس: ٩]. ثم يرتب على ذلك خير الدنيا والآخرة ويطلق الصالحات، فكل شيء ينطبق عليه الصلاح

فإنه داخل في الصالحات ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. والله يتولى الصالحين، أي الذين صلحت قلوبهم وأخلاقهم وأعمالهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. وهذا يقوله تعالى للمنافقين الذين يزعمون أن ما هم عليه من النفاق وترك الإيمان صلاح، فأخبر تعالى أنه هو عين الفساد، فكل من زعم أن الصلاح في خلاف الدين الإسلامي فهو من هؤلاء المنافقين وعلى شاكلتهم.

وفي القرآن آيات كثيرة فيها الحث على الصلاح والإصلاح والتحذير عن الفساد والإفساد، وهذا الأصل الكبير كما أنه ثابت شرعًا ودينًا فإنه ثابت في العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، وذلك بمعرفة ما هو الصلاح وضده؛ أما الصلاح فَأَنْ تكون الأمور كلها ظاهرها وباطنها دينيها ودنيويها معتدلة كاملة مكملة حاصلًا لها من الأوصاف الصالحة والنعوت المصلحة ما يوصلها إلى الصلاح الحقيقي؛ وبذلك ينتفي عنها الفساد، أما صلاح القلوب فأن تكون عارفة بالحق معترفة به منقادة له تابعة له، فأعظم الحق على الإطلاق الذي يتعين معرفته والانقياد له هو معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق الذي لا يشاركه ولا يماثله فيه مخلوق بوجه من الوجوه، وأنه المتفرد في عظمة صفاته، وتفرده في أفعاله وعطائه ومنعه وخفضه ورفعه وتصريفه الأمور بحكمة وعناية تتناقص عقول العالمين عن بلوغ غايتها ونهاية دقتها، ثم إذا عرفته هذه المعرفة الصحيحة المتلقاة عن كتاب الله وسنة رسول الله اعترفت وانقادت له محبة وخوفًا ورجاء وإنابة إليه وقصدًا في جميع شئونها الظاهرة والباطنة.

وبهذه المعرفة والاعتراف والانقياد التام تنقاد إلى أداء حقوقه وحقوق عباده بانشراح وطمأنينة وإذعان وداعي الإيمان ورجاء الثواب. أليس هذا هو الصلاح الحقيقي الذي لا يمكن صلاح الأحوال إلا به؟ فهل يمكن أن يصلح عبد لم يفرد ربه بمعرفته ومحبته والإنابة إليه ولم ينقد في ظاهره وباطنه إلى القيام بعبوديته وحقوق خلقه؟! فلو خلت القلوب من هذه المعاني الجليلة فهل يمكن أن تصلح، وهل يمكن أن تصلح الحركات الظاهرة والباطنة؟!

هذا ممتنع ومستحيل، فالقلوب الخالية من الإيمان المتجردة عن الانقياد والإذعان إليه، حيث انقطعت عن الله فلا بد أن تتبع شهواتها وأهواءها؛ وبذلك تفسد الأحوال كلها، وهذا برهان ظاهر نير على أن الصلاح في الدين والدنيا منوط بالقيام بالدين الإسلامي.

وأيضًا فإن الناس مضطرون إلى الاجتماع ومفتقرون إلى تبادل المصالح ولا بد لبعضهم من بعض، وشئون بعضهم متعلقة ببعض ولا يشك أحد من العقلاء أن مصالح البشر متعارضة ومطالبهم متباينة والمصالح مختلفة والأهوية غالبة؛ فكان هذا أقوى البراهين على اضطرار الخلق إلى دين وشرع سماوي معصوم يجدد لهم الحدود ويشرع لهم الشرائع وينهج لهم طريق العدل والإنصاف، ويمكن بعضهم من الانتفاع ببعض بطمأنينة وحياة طيبة، والشرع والدين الإسلامي كفيل بذلك على الوجه الأكمل والطريق الأقوم، ألا ترى حسن ما شرعه من المعاملات في المعاوضات كلها والتبرعات، وما أوجبه من الحقوق بين الناس على حسب ما تقتضيه المصلحة والضرورة والظروف، وما فيه من قواعد العدل التي لا غنى للخلق كلهم عنها، وما فيه من الحدود والعقوبات للمجرمين بحسب جرائمهم؟

فلو وكل الناس إلى عقولهم في هذه الأمور لصارت تبعًا للأهوية والأغراض وحصلت الفوضى بحسب ما ترك من نظامات الشريعة، وكل قاعدة نافعة موجودة عند الأجانب وكل نظام نافع عندهم فإنما أصله مأخوذ من الدين الإسلامي، فليذكر لنا المنحرفون أصلًا نافعًا ومعاملة نافعة وعملًا نافعًا خارجًا عن الدين الإسلامي، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وكيف يجدون السبيل والذي أنزله وشرعه للخلق هو الرب الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء وأحاط بكل شيء وعلم أحوال الخلق؛ ماضيها ومستقبلها فلا يخفى عليه منها مثقال ذرة، وأحكم ما شرعه غاية الإحكام، كما أحكم ما قدره في أحسن نظام، أليس من أجل طرق الصلاح الشكر عند النعماء والصبر عند المصائب والضراء؟! الأمران اللذان لم يزل ولا يزال الخلق في هذه الدنيا بينهما يتقلبون، ولا يمكن أن يخلو منهما مخلوق في وقت من الأوقات ولا حالة من الأحوال.

فسل الشاك في اشتمال الدين الإسلامي على غاية الصلاح؛ هل ما يدعو إليه الدين الإسلامي من مقابلة النعم والخيرات بالشكر والثناء على مُولِيهَا، والاستعانة بها على ما يحبه ويرضاه في صرفها في الوجوه النافعة، ومقابلة المكاره والمصائب بالصبر والرضا عن الله والتسليم لأقداره؛ فيكون العباد عند النعم من الشاكرين وعند المكاره من الصابرين، ويكسب الحياة الطيبة في الدنيا مع ما يدخره الله له في الآخرة، أم مقابلة النعم بالأشر والبطر والمكاره بالسخط والآلام القلبية والزلازل الروحية، كما هو أمر لازم للمنحرفين، فالعاقل لا يشك أن الأمرين لا يستويان، وقل له: أي الأمور خير؛ ما دعا إليه الدين من قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. الذي به صلاح الأمور أم طريقة الإسراف والتبذير وطريقة البخل والتقتير، وما دعا إليه الدين من الإحسان في عبادة الخالق وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها والإحسان إلى الخلق بكل وسائل الإحسان، أم ما يدعو إليه المنحرفون من الإعراض عن عبادة الله وحده والإقبال التام على شهوات النفوس الخسيسة، وجعلها هي مبلغ علم الإنسان، وكل همه منع الإحسان إلى الخلق، بل مقابلة الإحسان بالإساءة؟!

فلا بد أن يقول العقل الصحيح: هذا الأمر الجلي لا يحتاج إلى طلب ترجيح، وقل للشاك في حسن الدين الإسلامي: هل ما دعي إليه من وجوب بر الوالدين وصلة الأرحام وأداء حقوق الأصحاب والجيران، والمعاملين بطريقة العدل والفضل خير أم طريق الأثرة والعقوق والقطيعة والجور في المعاملات؟ وقل له: الله قد وهبنا عقولًا وقوى ظاهرة وباطنة نتمكن بها من إدراك سعادتنا ودفع شقاوتنا؛ فهل إذا استعملنا ما وهبنا ربنا من ذلك فيما خلقنا له من عبادة ربنا والقيام بحقوقه وحقوق عباده ورضوخ تلك المواهب والقوى لأحكام من أنعم بها ووهبها، والسلوك من ذلك الطريق المستقيم إلى ربنا، والاستعانة بما أعطانا من المنافع الدنيوية إلى صلاح ديننا ومصالحنا الكلية، أم الأولى بنا أن نستعمل العقول والقوى في أمور تافهة طفيفة لا تغني عن صاحبها شيئًا إن لم يؤسسها ويبنها على الدين، ويجعلها تبعًا لشهواته ووقفًا على مراداته ولو أهلك وضر أخراه؟! فالدين الصحيح

يدعو إلى الأول، وطرق الانحراف تدعو إلى الثاني، وقل له أيضًا: أيما أولى بالعبد أن يتبع ما دعا إليه الدين؛ من إخلاص الدين لله وحده وتعليق الرغبات والرهبات بالله، وألا يرجو ولا يطيع إلا بفضل الله وكرمه وتعليق ذلك بالمخلوقين، والذين لا يملكون لأنفسهم- فضلًا عن غيرهم- نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وقل له: إذا كان الرب هو الذي خلقنا ورزقنا وهدانا وعافانا وتفضل علينا بالنعم الظاهرة والباطنة، ألا يجب علينا أن يكون هو معبودنا، وهو الذي نحمده ونشكره ونبذل له ما في وسعنا واجتهادنا؟ ومع ذلك فإننا لا نبلغ بذلك مقابلة أدنى نعمة من نعمه علينا، فهل يليق بنا أن نصرف شيئًا من ذلك في شكر غيره وعبودية غيره؟ لا والله إن هذا أمر يستقبحه الشرع والعقل والفطرة.

وقل للشاك في تعاليم الدين الراقية: أليس الدين الإسلامي يحث المسلمين أن يكونوا إخوة متآلفين متفقين على دينهم وعلى أصوله وعلى جميع مصالحه ويرغبهم في هذا الأصل غاية الترغيب ويذكر لهم ثمرات ذلك العاجلة والآجلة ويزجرهم أشد الزجر عن كل ما ينافي ذلك من التباغض والتدابر والتقاطع، ويخبرهم أن إصلاح ذات البين هو السبب والطريق لصلاح الأحوال، كما أن فساد ذات البين هو السبب في الأضرار الدينية والدنيوية، فهل يوجد طريق لصلاح الأحوال الكلية غير هذا الطريق الذي يرشد إليه الدين بجميع وجوهه؟

وقل للشاك في كمال الدين إذا قال: نحن نعترف بما احتوى عليه الدين الإسلامي من الإصلاحات الدينية والقلبية أو الأخلاقية، وما احتوت عليه أحكامه من العبادات والمعاملات من الحسن الذي لا مزيد عليه ولا يمكن أن تقترح العقول أحكامًا مثل أحكامه فضلًا عن كونها تقترح أعلى من أحكامه، ولكن نشك في احتوائه على المنافع الدنيوية وعلى الصناعات وعلى علوم السياسة .

فأجبه قائلًا: أليس فيه قواعد وأصول من علم الاجتماع والسياسة لا يمكن أن يخترع المخترعون أحسن منها؟ أليس فيه الأمر بالمشاورة في جميع الأمور الداخلية والخارجية؟ فما

المقصود من المشاورة إلا النظر في المصالح والمضار والخير والشر وتقديم ما تعينت مصلحته أو ترجحت، واجتناب ما تعينت مضرته أو ترجحت، فالسياسة الحكيمة كلها ترجع إلى الشورى في الأمور، ألم يقل الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]. ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]؟ أي سخر لنا جميع ما في الأرض لننتفع بغرسها وزرعها وحرثها واستخراج معادنها والانتفاع بصناعاتها، وكذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فأطلق المنافع فشملت المنافع الدينية والمنافع الدنيوية خصوصًا منافع الأسلحة المتنوعة التي تجري مع الزمان والأحوال والصناعات التي ينتفع بها الناس في كل شيء، ألم يقل الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟ فهذا يدخل فيه كل قوة عقلية وسياسية وتعلم الفنون الحربية والركوب والرمي وتوابع ذلك، وكذلك أمر بأخذ الحذر من الأعداء، وذلك بالتخلص والتحصن والتحرز منهم بكل وسيلة تحصل بها الوقاية والتحرز، وكم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بالجهاد ومقاومة الأعداء فيدخل في ذلك كل وسيلة تعين على الجهاد في سبيل الله؛ فعلم بذلك أن الدين الإسلامي قد احتوى على جميع المصالح والخيرات العاجلة والآجلة والنفع الكلي والجزئي والديني والدنيوي، فهذه كلمات كليات يعرف تحقيقها بتتبع الأنواع والأجناس والأفراد وتحقيق الأمر فيها، وهذا من أكبر الآيات والبراهين أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومما يدل على عظمة هذا الدين أن الله أباح جميع الطيبات من المآكل والمشارب والملابس والمناظر والمناكح والتمتعات، وحرم كل خبيث من هذه الأمور ضار لصاحبه وللمصلحة العمومية، وأنه ما أمر بشيء فقال العقل الصحيح الحر: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به. ولا أخبر بما تحيله العقول، بل إخباره نوعان: نوع تشهد العقول بصحته وكماله وفضله، ونوع لا تهتدي إليه ولا تعرفه لعدم وصولها إليه؛ لكونه من عالم الغيب الذي لم تشاهده ولا شاهدت نظيره، وهذا النوع قد أرى الله عباده في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على صدق ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب السماوية.

من نظر وأمعن النظر في هذه الأصول التي تلوناها ونبهنا عليها تنبيهًا مختصرًا علم علمًا يقينيًّا أن الدين الإسلامي هو الدين الحق في علومه وعقائده وأخلاقه وأعماله وسياسته وحسن معاملته للخلق، وإحسانه إلى الموافق والمخالف، وأنه يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة التي هي سلوك الطرق والوسائل القولية والفعلية التي يستعان بها على الدعاية إلى سبيل الله الذي هو الصراط المستقيم، وأنه يأمر باللين وعدم المخاشنة في مخاطبة المحاربين للدين، فكيف بذلك مع المؤمنين؟ فيقول لرسوله ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال لموسى وهارون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]. ثم انظر إلى ما يخاطب الله به أعداءه الكفار وتخاطبهم الرسل فإنه الطريق الأقوم لهذا الطريق والدعاية إلى الخير، وبه يحصل من المنافع ودفع المضار ما لا يحصل بالمخاشنة والمشاتمة؛ فإنها طريقة الجاهلين الحمقى وإن حسنت مقاصدهم، فقد ساءت طرائقهم.

وهذا آخر ما يسر الله من هذه الرسالة الأصولية المحتوية على قواعد وأصول مختصرة جامعة، ونسأله تعالى أن يثبتنا على دينه وصراطه المستقيم إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، ونقلته من خط شيخنا المكرم متع الله لنا بحياته، وأنا الفقير إلى رب البريات عبده وابن عبده عبد العزيز بن صالح بن دامغ، وذلك بغاية من العجلة.

حرر في ١ جمادى الثاني سنة ١٣٦٦هـ.

